

أَبْسَطُ رَدَاءِكَ

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قلت : يا رسول الله ، إني أسمع منك حديثاً كثيراً ، أنساه ، قال : «أَبْسَطُ رَدَاءِكَ» فبسطته ، قال : فغرف بيديه ، ثم قال : «ضُمَّهُ» فضممته ، فما نسيتُ شيئاً بعدُ . [رواه البخارى]

وفى رواية (فغرف فيه بيديه) .

أما الترمذى ومسلم وأحمد فقد رووا الحديث بألفاظٍ مختلفة ، ولكنها تجتمع فى كون بَسَطِ الرِّدَاءِ وقبضه سبباً للحفظ .

وتتوالى على يدى رسول الله ﷺ الآيات الدالة على عظمة قدرة الله تعالى . وهى آيات لا نستطيع أن ندرجها ضمن الممكن فى حياة الإنسان ؛ لأنها خارجة عن كل القوانين التى تحكم فعاليات الإنسان والموجودات على هذه الأرض .

وفى هذا الأثر نلاحظ أن أبا هريرة رضى الله عنه كان عاجزاً عن حفظ كل أحاديث رسول الله ﷺ ، فاشتكى إلى رسول الله قلة الحفظ .

وتعلمون جيداً أن الحفظ ملكة عقلية ، تتفاوت من إنسان إلى آخر ، بتفاوت القدرات العقلية ، إضافة إلى قابلية هذه الملكة للتنامى من خلال التدريبات المستمرة على حفظ الأشياء .

أما فى هذا الأثر فإن ملكة الحفظ لدى أبى هريرة تنامت ، ولكن ليس من خلال التدريبات ، وإنما من خلال موقف حصل من رسول الله ﷺ بعيداً عن كل النشاطات التى قد تمارس لتنمية هذه الملكة ، وهو أن قال له «أَبْسَطُ رَدَاءِكَ» ، وعندما بسط رداءه غرف بيديه ، ثم قال له «ضُمَّهُ» ، وعندما ضمّه لاحظ أنه لم ينسَ شيئاً من أحاديث رسول الله ﷺ .

فماذا وضع رسول الله فى الرداء؟ مع ملاحظة أن يديه كانتا فارغتين؟ وما علاقة ضمّ الرداء على ما وُضع فيه بعقل أبى هريرة؟

من الثابت فى العلم المادى أن معالجة الاضطرابات المادية فى جسم الإنسان لا بد لها من علاجات مادية باطنية أو ظاهرية، وبعد أن يستخلص الجسم المواد الفعالة فى تلك العلاجات، ينقلها الدم إلى جميع أجزاء الجسد، فتفعل فعلها فى الأجزاء المقصودة.

ولزيد من الإيضاح أقول: إن ملكة الحفظ تنامت من خلال مظهرين مارسهما رسول الله ﷺ مع الأشخاص المعنيين:

أولاً: قيل للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين لقد أُوتيتَ علم الغيب. فضحك وقال:

(ليس هو بعلم غيب، وإنما هو تعلم من ذى علم).

وبعد أن عدّد له جوانب علم الغيب، قال

(وما سوى ذلك فعلم علّمه الله نبيّه، فعلمنيه، ودعا لى بأن يعيه صدرى، وتنضمّ عليه جوانحى)^(١).

فكان الدعاء من رسول الله ﷺ سبباً لتنامى ملكة الحفظ لدى الإمام كرم الله وجهه.

ثانياً: وهذا الأثر الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه.

فما هى الفعالية التى كان لها هذا الأثر فى ملكة الحفظ لدى الإمام ولدى أبى هريرة.

أولاً: لدى الإمام.

كان مجرد الدعاء سبباً كافياً لتنامى ملكة الحفظ لدى الإمام؛ لأن المقصود بالدعاء هو رب العالمين، الذى استجاب لدعاء رسوله الأعظم، فأراد للأمام أن

(١) نهج البلاغة . شرح الإمام محمد عبده - الجزء الثانى - ص ١٠، ١١.

لا ينسى شيئاً مما يلقيه إليه رسول الله، وفي هذه الحالة لنا في تأويل هذا الأمر مساران:

١ - إن الله، جلا وعلا، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وإن لم نستطع إدراك هذه الكينونة، يبقى من المفروض علينا الإيمان بأن القدرة الإلهية تفعل ما تريد بعيداً عن كل القوانين المعلومة في حياة الإنسان.

٢ - أما المسار الثاني، فيفترض أن قوله تعالى (كن فيكون) لا يأتي غفلاً من القوانين التي قدرها جل شأنه للمخلوقات، لأن القوانين التي قدرها جل شأنه في الموجودات هي:

- قوانين يعلمها الإنسان، وأعطاه جل شأنه القدرة على التصرف فيها أو الاحتيايل عليها، كقانون الجاذبية وغيره من القوانين التي تأتي في نفس المسار.

- وقوانين لا يعلمها الإنسان، ولا يدري عنها شيئاً، وليس له أن يعلم منها شيئاً.

فقد أراد جل شأنه للإمام أن يحفظ كل ما يلقي إليه من رسول الله، فما كان منه جل شأنه إلا أن قال لملكة الحفظ (كوني حافظة بالقدر كذا) فلم تملك إلا الاستجابة للأمر الإلهي، فاستوعبت كلها ما ألقى إليها.

فالقدرات الموجودة لدى الإنسان خلقها جل شأنه قابلةً لأن تأخذ مجالاً أكبر بكثير مما هو متيسر للإنسان، ولكنه، سبحانه، أراد لها قدراً معيناً من الفعاليات، فلم تتجاوزه، وليس لها أن تتجاوزه إلا بأمر من الله تعالى.

وللتدليل على ذلك انظروا إلى العصا التي كانت لدى موسى عليه السلام، التي كانت تحمل في ذاتها من القوانين المعلومة لدينا، ما يستحيل معه تحولها إلى أفعى، تأكل ما تجده أمامها. ولكنه، سبحانه وتعالى، أودع فيها قانوناً آخر، يعطيها القابلية على التحول من ذاتها إلى ذات أخرى، وعندما أمرها جل شأنه أن تصبح أفعى، استجابت من خلال القوانين المودعة فيها، فأصبحت أفعى. ونفس المقال يقال في (الجدل) الذي أعطاه رسول الله لعكاشة، فأصبح سيفاً قاطعاً.

ثانياً: لدى أبي هريرة :

أما أبو هريرة، فإن الأمر قد تجاوز ما قد قيل في حالة الإمام كرم الله وجهه، إلى حيثيات أخرى غريبة، قد تستغل على الفهم، ومن بينها أن تكون تنمية ملكة الحفظ مرهونةً بضمّ الرداء على ما وُضع فيه، وأن يكون الموضوع شيئاً تجزم الحواس بعدم وجوده.

إن الحالة التي جرت مع أبي هريرة لم تكن أمراً إلهياً (كن)، ولم يكن الذي قدمه رسول الله ﷺ متعلقاً بذات أبي هريرة، بل كان متعلقاً بردائه، فما علاقة الرداء بملكة الحفظ لدى ذلك الصحابي الجليل؟

إن يدعى رسول الله ﷺ كانتا فارغتين من كل أثر مادي، ومن يراهما في ذاك الوقت لن يرى فيهما شيئاً. ومع ذلك فإننا لا نستطيع القول بأن رسول الله كان يضحك على أبي هريرة، فأوهمه أنه وضع شيئاً في الرداء، وهو لم يفعل؛ فليس من أخلاق رسول الخداع والإيهام.

بل نقول إنه وضع شيئاً في الرداء، ولكنه شيء يخرج عن طبائع الأشياء التي يدركها الإنسان، إلى طبيعة أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، وأما أبو هريرة فلم يعلم منها سوى أثرها الذي تجلّى في قدرته الفائقة على الحفظ.